مظاهر تطور اللغة العربية

م .د صبا حامد حسين	م.د وسن عباس جاسم	م.د هدى محمود شاكر
كلية التربية (ابن رشد)	كلية التربية	كلية التربية للبنات
جامعة بغداد	الجامعة المستنصرية	جامعة بغداد

ملخص البحث

تناولت الباحثات في البحث الحالي مظاهر تطور اللغة العربية ، وذلك لأهمية اللغة العربية ومكانتها ، إذ إنها نظام لاغنى للبشرية عنه في التفاهم والتعبير والعمل ، وهي أساس كل نشاط ثقافي ، ووظيفتها هي الدلالة والإيحاء ، وهي وثيقة الصلة بالإنسان وبيئته ، تربط بين أعضاء المجتمع الواحد ، فضلا عن أنها تربط بين الأجيال ، إن اللغة هبة إلهية راقية أنعم الله بها سبحانه وتعالى على بني البشر وخصهم بها ، فهي أداة الاتصال ، ووسيلة بناء الفكر والشعور ، ودعامة التفكير ، وبناء على هذا فأنها لا تشمل النطق والكلام فحسب ، بل تجمع الكتابة والخط وأنواع الاستدلالات العقلية والمنطقية التي تبين المسائل المختلفة والمعقدة أيضا على رغم من معالم هذه المجموعة هي التكلم والنطق ، لذلك تعد اللغة وسيلة لدراسة المواد التعليمية في المواضيع المختلفة وفهمها وبغيرها لا يمكن دراسة هذه المواد وتعلمها ، فاللغة هي التي نعبر بها عن آرائنا وأفكارنا وهي الوسيلة التي نشرح بها كل علم من العلوم أو فن من الفنون ، و بها نفكر ونفهم ، و بها نحاول تفهيم غيرنا ما نشاء ، إن تعلم اللغة الأم في المدارس العربية يعد هدفا بحد ذاته واكتساب اللغة العربية والإلمام بها الأمر الأهم بالنسبة للطالب إذ إن اللغة هي إحدى الأدوات التي يتم بوساطتها تعلم الموضوعات التعليمية الأخرى في المدرسة والنجاح بها ، ومن دون اللغة الأم سيجد الطلبة صعوبة في فهم الموضوعات الأخرى وتحقيق درجات عالية من التحصيل ، وعليه هناك عّدة توصيات ذكرتها الباحثات منها :

١- التركيز في مرحلة الطفولة – بوصفها أهم المراحل المشكلة لعقلية الطفل العربي – على القصائد والأناشيد السهلة بغية تنمية مهارة التذوق والحس اللغوي لدى الطفل.

٢- التزام جميع المعلمين وفي مراحل التعليم كافة باستعمال اللغة العربية في العملية التعليمية ، وألا يخضعوا للترقية في وظائفهم إلا إذا أثبتوا إتقانهم أساسيات لغتهم .

٣- عقد دورات لجميع المعلمين لتدريبهم على استعمال أساسيات اللغة بصورة سليمة ، وألا تقتصر الدورات على معلمي اللغة العربية وحدهم ؛ انطلاقا من أن تعليم اللغة مسؤولية جماعية.

المقدمة

إنّ لغة اختارها الله – تعالى – لتكون وعاءً لكتابه الخالد﴿القرآن الكريم﴾ لا شك لغة تتربع على عرش الألسنة واللغات !

وتلك مفخرة لنا نحن العرب، غبطنا عليها أهل الفكر والثقافات – شرقيين وغربيين – .. [١] .

يقول الدكتور عبد الوهاب عزام : "العربية لغة كاملة محببة عجيبة تكاد تصور ألفاظها مشاهد الطبيعة، وتمثل كلماتها خطرات النفوس، وتكاد تنجلي معانيها في أجراس الألفاظ ؛ كأنما كلماتها خطوات الضمير، ونبضات القلوب، ونبرات الحياة " [٢] .

لذا فلغتنا العربية تحتل مكانة كبيرة في نظر المستشرقين المنصفين :

يقول المستشرق الفرنسي "لويس ماسينيون" عن اللغة العربية : و"باستطاعة العرب أن يفاخروا غيرهم من الأمم بما في أيديهم من جوامع الكلم التي تحمل من سموّ الفكر وأمارات الفتوة والمروءة ما لا مثيل له " [٣] .

ويشير "ماسينيون" إلى أنّ اللغة العربية : لغة وعي ولغة شهادة ، وينبغي إنقاذها سليمة بأي ثمن للتأثير في اللغة الدولية المستقبلية ، وإنّ في اللفظ العربي جرساً موسيقياً لا أجده في لغتي الفرنسية – حسب تعبيره – [٤] .

ويقول المؤرخ الفرنسي "آرنست رينان" : "من أغرب المدهشات أن تنبت تلك اللغة القومية ، وتصل إلى درجة الكمال وسط الصحارى عند أمة من الرحّل ، تلك اللغة التي فاقت أخواتها بكثرة مفرداتها ودقة معانيها ، وحسن نظام مبانيها ، وكانت هذه اللغة مجهولة عند الأمم ومن يوم علمت ظهرت لنا في حلل الكمال لدرجة أنها لم تتغير أي تغير يذكر ؛ حتى إنها لم يعرف لها في كل أطوار حياتها لا طفولة ولا شيخوخة ، ولا نكاد نعلم من شأنها إلاّ فتوحاتها وانتصاراتها التي لا تبارى ، ولا نعلم شبيها لهذه اللغة التي ظهرت للباحثين كاملة من غير تدرج وبقيت محافظة على كيانها من كل شائبة [٥] .

من هنا ؛ يجب إيلاء اللغة العربية التي ترتبط بتاريخنا وثقافتنا وهويتنا كل اهتمامنا ورعايتنا ؛ بحيث تعيش معنا في مناهجنا وإعلامنا وتعليمنا – كائنا حياً ينمو ويتطور ويزدهر ويكون في المكانة التي يستحقها جوهراً لانتمائنا القومي ؛ حتى تكون قادرة على الاندماج في سياق التطور العلمي والمعرفي في عصر العولمة والمعلومات ؛ لتصبح أداة من أدوات التحديث ودرعاً متينة في مواجهة محاولات التغريب والتشويش التي تتعرض لها ثقافتنا .. [٧] .

المبحث الأول

أولاً : النهوض باللغة العربية :

إنّ النهوض باللغة العربية من النواحي كافة يجب أن يتصدر أولويات العمل العربي المشترك على جميع المستويات . لا أقول : العمل العربي الثقافي التعليمي فحسب ، بل أقول : العمل العربي العام على مختلف الأصعدة ؛ لأن النهوض باللغة ليس مسألة ثقافية ، ولا هي مسألة تربوية تعليمية فحسب ، وإنما هي أيضاً مسألة السيادة والأمن والاستقرار والمصير.

فاللغة العربية : هي وعاء ثقافتنا ، وعنوان هويتنا ، والمحافظة عليها تعدّ محافظة على الذات وعلى الوجود [١] .

يقول الأستاذ مصطفى صادق الرافعي – رحمه الله – : وإذا كانت اللغةُ بهذه المنزلة ؛ كانت أمتها حريصة عليها ، ناهضة بها ، متسعة فيها، مكبرة لشأنها ... فأما إذا كان من شعبها التراخي والإهمال وترك اللغة للطبيعة السوقية ، و أصغار أمرها ، وتهوين خطرها ، وإيثار غيرها بالحبّ والإكبار ؛ فهذا شعب خادم لا مخدوم ، تابع لا متبوع ، ضعيف عن تكاليف السيادة ، لا يطيق أن يحمل عظمة ميراثه ، مجتزئ ببعض حقه ، مكتفٍ بضرورات العيش ، يوضع لحكمه القانونُ الذي أكثره للحرمان وأقلّه للفائدة التي هي كالحرمان [٢] .

ويضيف الأستاذ الرافعي قائلا : لا جرم كانت لغة الأمة هي الهدف الأول للمستعمرين ، فلن يتحول الشعب أول ما يتحول إلا من لغته ؛ إذ يكون منشأ التحول من أفكاره وعواطفه وآماله ، وهي إذا انقطع من نسب لغته انقطع من نسب ماضيه ؛ فليس كاللغة نسبٌ للعاطفة والفكر ؛ حتى إنّ أبناء الأب الواحد لو اختلفت ألسنتهم فنشأ منهم ناشئ على لغة ، ونشأ الثاني على أخرى ، والثالث على لغة ثالثة ، لكانوا في العاطفة كأبناء ثلاثة آباء [٣].

وكان علماء الأمة – رحمهم الله – في صدرها الأول على وعي كامل بأثر اللغة في تكوين الأمة ، وخطرها في بناء شخصية المسلم ؛ لذا حرصوا حرصاً شديداً على المحافظة على لغة القرآن والسنة ، وشدّدوا النكير على من حاد عنها إلى غيرها ، واستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير [٤] .

وضعت اللغات لدى شعوب الأرض لأقدارها على التفاهم والتواصل ، وحملت اللغات رسالات السماء إلى الأرض ، وتمكن الخلق بواسطتها من تنظيم فكره وتطويره .

واللغة العربية حملت آخر الرسالات ، وأريد لها أن تكون لسان الوحي ، وقدّر لها أن تستوعب دليل نبوة الإسلام ، واختزال مضامين الرسالات السابقة ، والانطواء على المنهج الذي ارتضاه الله لخلقه إلى يوم الدين .

وقد أكسب الإسلام اللغة العربية قاعدة عريضة ومجالاً رحباً للحيوية والفعالية والنشاط الواقعي بين صفوف المسلمين ممن لسانهم عربي أو أعجمي ناطق بها، وكان الدخول في الإسلام يعني تعلم اللغة العربية ؛ حتى كادت العربية أن تكون مرادفة للإسلام في عصوره الأولى في نظر الشعوب الأخرى من غير العرب .

وقد سأل أبو جعفر المنصور مولىً لهشام بن عبد الملك (ت ١٣٢ هـ) عن هويته ؛ فقال المولى : "إن كانت العربية لساناً فقد نطقنا بها، وإن كانت ديناً فقد دخلنا فيه !" [٦] .

فكون اللغة العربية : لغة دين ، تجعل الأجيال متصلة جيلاً بعد جيل ؛ لأن الإسلام هو الدين الخاتم، ولغته باقية ما بقيت الدنيا ؛ لن تجد بقعة في هذه الأرض إلا وفيها لغة عربية بتفاوت في الكمية والكيفية بين بقعة وأخرى.

أليست هذه الخصيصة للغة العربية عاملاً مهماً ورئيساً لأن تجعلها لغة عالمية باقية ؛ وأنها لغة تشد إليها مئات الملايين من أجناس البشر ويفتخرون بأن لهم نصيباً منها ؟ [٧] .

هذا ؛ في الوقت الذي كانت فيه دراسة اللغة العربية عند الأقدمين مرتبطة بالعامل الديني ؛ ونتيجة لهذا الارتباط الوثيق ؛ فقد خلفت لنا العصور الأدبية على امتداد التاريخ اهتماماً كبيرًا بلغة القرآن ، سواء فيما يتصل برصد مروياتها من الآثار الأدبية من شعر ونثر، أو فيما يتصل بإضفاء مفرداتها ، وتسجيل أوابدها وغرائبها في المعجميات والقواميس اللغوية ، أو فيما يتصل باستنباط القواعد والأسس التي تعنى بسلامتها ، والمحافظة على أصولها الموروثة ، ووضع الدراسات اللغوية الخاصة باكتناه أسرارها، والكشف عن خصائصها ومميزاتها [٨] .

ويقرر هذا أبو منصور الثعالبي (٣٥٠ – ٤٢٩هـ) ؛ إذ يقول : " من أحب الله – تعالى– أحب رسوله محمداً – صلى الله عليه وسلم –، ومن أحب الرسول العربي أحب العرب ، ومن أحب العرب أحب العربية التي بها نزل أفضل الكتب على أفضل العجم والعرب، ومن أحب العربية عُني بها، وثابر عليها ، وصرف همته إليها، ومن هداه الله للإسلام ، وشرح صدره للإيمان، وآتاه حسن سريرة فيه، اعتقد أن محمداً – صلى الله عليه وسلم – خير الرسل، والإسلام خير الملل، والعرب خير الأمم، والعربية خير اللغات والألسنة ، والإقبال على تفهمها من الديانة ؛ إذ هي أداة العلم ، ومفتاح الثقة في الدين ، وسبب إصلاح المعاش والمعاد " [٩] .

والعربية ليست كأية لغة من اللغات الأخرى ، بل هي فريدة من نوعها ؛ اصطفاها الله من بين اللغات جميعا لتكون وعاء لكتابه الخالد ﴿القرآن الكريم﴾ . واختارها أيضاً لتكون لسان نبيه الأمين ؛ لذا أوجب الشارع الحكيم تعلمها ؛ حتى يفهم مقاصد الكتاب والسنة [١٠] .

يقول الإمام الشافعي–رحمه الله–: " فعلى كل مسلم أن يتعلم من لسان العرب ما بلغه جهده حتى يشهد به أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله ، ويتلو به كتاب الله وينطق بالذكر فيما افترض عليه من التكبير، وأمر به من التسبيح والتشهد وغير ذلك " (١١) .

وأوجب شيخ الإسلام ابن تيمية على المسلم تعلم العربية ؛ فقال : "إنّ معرفة اللغة من الدين، ومعرفتها فرض واجب، وإن فهم الكتاب والسنة فرض ، ولا يفهم إلا بفهم اللغة العربية ، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب " (١٢) .

وأرجع ابن تيمية – رحمه الله – الخلط في الدين – عند أهل البدع – إلى : قلة فهم اللغة العربية ؛ حيث يقول : " إنّ معرفة العربية التي خوطبنا بها مما يعين على أن نفقه مراد الله ورسوله بكلامه، وكذلك ضلال أهل البدع كان لهذا السبب ، فإنهم صاروا يحملون كلام الله ورسوله على ما يدعون أنه دال عليه ولا يكون الأمر كذلك " (١٣) .

ويوضح هذا المفهوم الجاحظ (١٥٩ – ٢٥٥ هـ) ؛ إذ يقول : "للعرب أمثال واشتقاقات وأبنية وموضع كلام يدل عندهم على معانيهم وإراداتهم ... فمن لم يعرفها جهل تأويل الكتاب والسنة والشاهد والمثل، فإذا نظر في الكلام وفي ضروب من العلم، وليس هو من أهل هذا الشأن هلك وأهلك " (١٤) .

ثانياً : واقع اللغة العربية في العصر الحديث :

حين قيض لمحمد علي باشا أن يتسلم حكم مصر عام ١٨٠٥م ، بدأ بإنشاء دولة حديثة تقوم على العلم والمدنية ؛ فأرسل البعثات الدراسية إلى أوروبا ، وفتح عدداً من المدارس العسكرية والطبية والهندسية وغيرها.

ومن الأمور التي تفردت بها مصر في ذلك العصر: أن اللغة العربية صارت لغة الحكومة الرسمية، ولغة التدريس في جميع المدارس الجديدة .

أما في الشام ، فقد عملت الإرساليات التبشيرية للدول الأجنبية في القرن التاسع عشر على تدريس العربية، وسعت إلى نشرها ؛ مدفوعة بدوافع سياسية تهدف إلى تقويض الخلافة العثمانية التي بالغت في أواخر عهدها في تتريك العرب وإجبارهم على التخلي عن لغتهم [١٥] .

وكان من مآثر محمد علي في مصر: تأسيسه لمدرسة الطب التي عدت أكبر مظهر من مظاهر النهضة العلمية ؛ إذ شهدت تعليم العلوم الحديثة باللغة العربية طيلة سبعين عاما برز خلالها الكثير من الأساتذة والمترجمين الذين خدموا العربية خدمات جليلة.

وقد كانت هذه المدرسة التي أسست عام ١٨٣٦م، معلما بارزا في ابتعاث العربية الفصحى وتطويعها ؛ لاستيعاب العلوم الحديثة ومصطلحاتها بعد ذلك الانقطاع الطويل بين الفصحى والعلم عصورًا متتابعة .

ولا بدّ من الإشارة إلى تلك الحماسة التي كانت تملأ النفوس ، والإخلاص الذي كان يعمر القلوب لدى أولئك النفر من العلماء الذين كانوا روّاد نقل العلوم الحديثة إلى لغتنا .

غير أنّ الإنجليز حين احتلوا مصر عام ١٨٨٣م سارعوا إلى جعل التدريس في مدرسة الطب بالإنجليزية ؛ وكان ذلك انتكاساً أصاب العربية الناهضة آنئذ[١٦].

وإنّ من يراجع الوثائق التي بدأت بها عملية الاحتلال البريطاني لمصر؛ يكتشف أنّ أول أعمال الاحتلال هو وضع خطة لتحطيم اللغة.

يبدو ذلك واضحاً في تقرير "لورد دوفرين" عام ١٨٨٢م، حين قال : "إنّ أمل التقدم ضعيف "في مصر" ما دامت العامة تتعلم اللغة العربية الفصيحة".

وقد توالت هذه الحرب ليس في مصر وحدها، بل في الشام والمغرب بأقطاره كلها في محاولات قدمها "كرومر" و"بلنت" من ناحية، و"لويس ماسينيون" و"كولان" في المغرب من ناحية أخرى [١٧] .

وكان التعليم في البلاد العربية المحتلة يتم كله باللغات الأجنبية : (الإنجليزية : في مصر والسودان والعراق)، و(الفرنسية : في سورية وتونس والجزائر والمغرب).

أولا : تحويل أبجدية اللغات الإقليمية إلى اللاتينية ، وكانت تكتب أساسا بالحروف العربية

ثانيا : تقديم اللغات الأجنبية في الأقطار الإسلامية على اللغة العربية .

ثالثا : تقديم اللهجات واللغات المحلية وتشجيعها والدعوة إلى كتابة اللغة العربية بالحروف اللاتينية .

رابعا :ابتعاث الطلاب إلى دول الغرب لدراسة لغاته، وكان ذلك إيماناً بأن اللغة هي الوجه الثاني للفكر ، وأنّ من يجيد لغته لا بد أن يعجب بتاريخها وفكرها ويصير له انتماء من نوع ما إلى هذه الأمة [١٨] .

هذا ؛ وكانت الحملة على اللغة العربية الفصحى من خلال حجج ضعيفة واهية منها: صعوبة اللغة، ومنها التفاوت بينها وبين العامية ،وكان فرض اللغات الأجنبية من مختلف أقطار الأمة الإسلامية عاملاً هاماً في فرض ثقافاتها ووجهة نظر أهلها ، والوقوف موقف الإعجاب بالغاصب والعجز عن مواجهته ،ومن يدرس تجارب التعليم الغربي في البلاد العربية يجد الولاء الواضح للنفوذ الغربي ! [١٨] .

غير أنّ العربية الفصحى في هذا العصر استطاعت أن تقاوم ، بطبيعتها القوية النامية ، وباستنادها إلى تراث روحي وأدبي ، جملة من المشكلات والعوائق التي عملت على إزاحتها عن الحياة.

وهكذا صارت دعوات تغيير الحروف العربية والاستعاضة عنها باللاتينية ، ومحاولات مسخ العربية بادعاء أنّ العاميات هي أصدق تمثيلاً للحياة من الفصحى، ونزعات التتريك والفرنجة ونحوها، أثراً بعد عين، ولم يعد لهذه الافتراءات من أنصار، باستثناء بعض العملاء الذين ارتضوا أن يكونوا أذناباً للاستعمار ينفذون مؤامراته على الأمة العربية ؛ غدرًا بحضارتها، وطعناً بلغتها، وهدما لمقوماتها، وهم في كل هذا مخفقون لا محالة [١٩] .

وكان من حصاد هذه المرحلة الموّارة بالحماسة العربية : تأسيس المجمع العلمي العربي بدمشق عام ١٩١٩م، وإنشاء معهدي الطب والحقوق اللذين شكلا نواة الجامعة السورية (جامعة دمشق الآن)، وكان شرط الحكومة في تسمية الأساتذة أن يحسنوا التدريس باللغة العربية ؛ لأنها اللغة الرسمية للجامعة [٢٠] .

لذلك اطرد الاهتمام الرسمي بالعربية الفصحى ؛ فأنشئ مجمع اللغة العربية في مصر (مجمع الخالدين) عام ١٩٣٢م، بعد محاولات فردية سعت إلى تأليف لجان ومجامع لرعاية العربية وتطويرها، وأنشئ بعد ذلك المجمع العلمي العراقي في بغداد عام ١٩٤٧م ؛ للعناية بسلامة اللغة وجعلها وافية بمطالب التعليم والحياة الحاضرة .

وتوالى بعد ذلك إنشاء الجامعات والمراكز العلمية واللغوية التي أخذت على عاتقها مهمة حماية اللغة وتطويرها، ومن أهم ذلك : إنشاء مكتب تنسيق التعريب في الرباط عام ١٩٦١م، وتأسيس مجمع اللغة العربية الأردني في عمّان عام ١٩٧٦م، ومن بعد مجامع اللغة العربية في كلٍّ من السودان وليبيا والجزائر [٢١] .

على أنه ينبغي أن تتواصل الجهود لتحديث اللغة العربية اصطلاحاً وتقنية حتى تواكب هذا التسارع الهائل في العلوم المستحدثة في العالم ، لاسيما علوم الحاسوب والاتصال والإعلام ؛ فلا خوف الآن على لغة الأدب ؛ لأنّ تراثنا الأدبي القديم ونتاجنا الجديد يدعمانها ويعملان على ترقيتها باستمرار .

أما لغة العلم فليست على حال مرضية ؛ لأسباب كثيرة أهمها: [٢٢].

١- بطء حركة التعريب ، لاسيما تعريب الطب والهندسة ، فمع أن الدساتير العربية الحديثة أقرت العربية لغة للدولة والحياة في كل مجال ، إلاّ أن معظم الجامعات العربية استمرت في تدريس الطب والعلوم والهندسة ونحوها باللغات الأجنبية ، لاسيما بالإنجليزية.

٢- الافتقار إلى المصطلحات المناسبة لنقل العلوم والهندسة ونحوها من الجوانب العلمية المتعددة ، والاختلاف حول ما هو موجود. فمع الاتفاق الظاهري المعلن في المؤتمرات العلمية

واللغوية ، بقيت فوضى المصطلحات العلمية وغيرها تعصف بالكتب التعليمية والرسائل الجامعية ومن قطر إلى أخر دون أن تكون هناك رقابة حقيقية على الالتزام بالمصطلحات الموحدة والمتفق عليها.

٣- قلة المراجع العلمية العربية المؤلفة والمترجمة ، وتباطؤ الجهود المبذولة في هذا المجال.

لقد كانت بداية التعريب نهضة حقيقية للتأليف العلمي الحديث في اللغة العربية ، ويكفي المرء أن يلم بأسماء المؤلفات التي وضعها أو ترجمها أساتذة الطب والعلوم والقانون في دمشق منذ عام ١٩١٩م ؛ ليقف على مبلغ ذلك النشاط العلمي المثمر ، لكن ظروفا مادية ومعنوية جعلت المتخصصين في الجامعات العربية عامة ينصرفون عن التأليف الجاد والترجمة والمتابعة إلى الوفاء بمتطلبات التعليم الآنية .

٤- تقصير الجامعات والهيئات العلمية المختصة في إحياء تراث العرب العلمي ، وتدريس الصالح منه ، وتقديم معلومات وافية عن تاريخ العلوم عند العرب ، وجعلها مقررات دراسية تشمل كافة الفروع.

والحق أنّ معظم الجامعات العربية بدأت تسعى لتلافي ما ذكرنا من قصور ؛ حيث إنّ آفاق التعريب أضحت تتوسع باطراد ؛ نظرًا لأن الإرادة القومية تبعث فيها المزيد من القوة باستمرار ولم يعد جعل العربية وسيلة كل مختص للتعبير عن عمله شعاراً ، بل واقعاً يرجى ترسيخه والبناء على أساسه بإخلاص .

المبحث الثاني

التحديات التي تواجهها اللّغة العربيّة :

اتخذت محاربة اللغة العربية الفصيحة أشكالاً متعددة ، منها : وصم لغتنا بالتخلف ، وعدم مواكبة روح العصر ، والتفجّر المعرفي ، وبأنها لغة البداوة وليست لغة العلم ، ووصمها بالصعوبة والتعقيد ؛ بسبب نحوها وصرفها وكثرة الحركات فيها ، وأنها تفهم لتقرأ خلافا لبقية اللغات! [٥١] .

وإذا أردنا حصر التحديات التي تواجهها اللغة العربية ؛ فإننا نلخص أهمها في الآتي :

١- استبدال العامية بالفصحى.

٢- تطوير الفصحى حتى تقترب من العامية .

٣- الهجوم على الحروف العربية ، والدعوة إلى استعمال الحروف اللاتينية .

٤- إسقاط الإعراب في الكتابة والنطق .

٥- محاولة تطبيق مناهج اللغات الأوروبية على اللغة العربية ودراسة اللهجات العامية [٢٣].

إلاّ أن أبرز هذه التحديات التي تواجهها لغتنا الخالدة وأخطرها على الصعيدين الخارجي والداخلي في عصرنا الحالي ، ما يلي :

<u>أولا : من التحديات الخارجية :</u>

١- العولمة :

إنّ العولمة الثقافية تروم نشرَ اللغة الإنجليزية – لغة القطب الواحد – وهيمنتها في التعليم والتواصل ؛ وهذا ما دفع أمريكا إلى مناهضة الوقوف ضد التنوع الثقافي والتعدد اللغوي في المنظمة الدولية للتربية والعلوم والثقافة "اليونسكو" [٢٤] .

٢- نشر اللغات الأجنبية على حساب العربية :

يظهر هذا في حملة نابليون على مصر ودعوته إلى نشر الفرنسية ، وحملة التتريك التي رمت إلى استبعاد العربية وفرض اللغة التركية مكانها ، ثم محاولات المستعمرين فرض لغاتهم إبان احتلالهم الدول العربية، ومحاولات بعض المستشرقين في النصف الأول من القرن الماضي

اعتماد اللهجات العامية وكتابتها بالأحرف اللاتينية على يد القاضي "ويلمور"، والمهندس "ويلكوكس" . وقد سار نفر من أبناء العربية تحت لواء تلك الدعوات الهدامة، من أمثال : سامة موسى، وعبد العزيز فهمي، وأنيس فريحة ... إلخ [٢٥] .

٣- إحياء لغات الأقليات :

حيث يقدم الدعم السخيّ للقائمين عليها؛ تحت شعار: "حقوق الإنسان" ! [٢٦].

٤- محاولة شطب اللغة العربية من الأمم المتحدة :

فهناك توجه إلى إلغاء اللغة العربية من بين اللغات العالمية الرسمية في منظمة الأمم المتحدة، واللغات العالمية الرسمية في المنظمة هي: "الإنجليزية ، الفرنسية ، الإسبانية ، الروسية ، الصينية ، العربية " ؛ وذلك للأسباب الثلاثة الآتية :

أ- عدم وفاء معظم الدول العربية بالتزاماتها المتعلقة بدفع نفقات استعمال العربية في المنظمة

ب-عدم استعمال ممثلي الدول العربية للغة العربية في الأمم المتحدة؛ فهم يستعملون الإنجليزية أو الفرنسية في إلقاء كلماتهم ومناقشاتهم.

ج- عدم وجود مترجمين عرب أكفاء يجيدون اللغة العربية [٢٧] .

٥- ترويج المصطلحات المعادية لأمتنا العربية :

حيث تروج الدوائر المعادية لأمتنا بعض المصطلحات ، وتعمل على سيرورتها وانتشارها ، ومن بين هذه المصطلحات : "منطقة الشرق الأوسط" ؛ إذ إنّ هذا المصطلح يشمل منطقة لا هوية لها ؛ لإزالة الهوية العربية، وليحل هذا المصطلح مكان "الوطن العربي" أو "البلاد العربية" أو "الأمة العربية" .

٦- ضعف ما ينشر باللغة العربية على شبكة الإنترنت :

حيث إنّ ٨٠% من الصفحات المتوفرة على شبكة "الويب" مكتوبة بالإنجليزية ؛ وهذا يسبب الكثير من الإشكاليات [٢٨] .

ونرى الاتفاق على إدخال اللغة العربية في تكنولوجيا هذا العصر، ومطالبة الشركات المصنعة أن تصنع العربية في جميع الأجهزة المصنعة وما يرافقها من تعليمات وبخاصة أجهزة الحاسوب [٢٩] .

٧- إحياء الدعوة إلى استعمال اللهجات العامية مجددًا :

حيث يتم تشجيع البحوث التي تخدم العاميات وتقديم الدعم المادي لها .

ووصل الأمر إلى أن بعض الجامعات الأمريكية قامت بإلغاء تدريس اللغة العربية والاستعاضة عنها باللهجات العربية مثل:الشامية والمصرية والمغربية والعراقية.

ثانيا : من التحديات الداخلية :

١- ضعف الانتماء للوعي اللغوي :

حيث نجد هيمنة اللغات الأجنبية في الجامعات الخاصة وفي المدارس الخاصة حتى في رياض الأطفال، وضعف الانتماء وفتوره وضعف الوعي اللغوي، وليس هذا الضعف في الوعي اللغوي لدى الأميين فقط، إنما لدى نفر من "المثقفين" الذين يهجرون لغتهم إلى استعمال العامية حينا، وإلى استعمال الإنجليزية أو الفرنسية حيناً آخر ! [٣٠] .

ونسوا أنّ الحفاظ على الهوية والذاتية الثقافية للأمة واجب مقدس في عصر العولمة ، ولغتنا العربية هي رمز كياننا القومي ، وعنوان شخصيتنا العربية وهويتنا ، وأنّ الوعي اللغوي أمر مهم جداً في عملية الحِفاظ على الهوية ؛ تخليصاً للجيل من عقدة التصاغر تجاه اللغات الأجنبية وثقافتها [٣١] .

٢- وصم العربية بالتخلف ، وعدم مواكبة العصر :

لقد انقسم الباحثون حول مواكبة اللغة للعصر ؛ إلى ثلاث فرق:

الفريق الأول: وزعم القائلون به أن اللغة العربية عاجزة عن كفاية أهلها ولن تصلح لقضاء هذه الحاجة، ولا بد من اتخاذ لغة العامة أو لغة أجنبية بدلا منها !

الفريق الثاني: وزعم أن العربية كافية أهلها كل الكفاية وليست في حاجة إلى أقل إصلاح على الإطلاق.

الفريق الثالث: وارتأى أن اللغة العربية ليست بكافية كفاية تامة، كما زعم الفريق الثاني، ولا هي عاجزة كل العجز كما زعم الفريق الأول ، ولكنها في حاجة شديدة إلى إصلاح يقويها ويرقى بها حتى تتمكن من كفاية أهلها والوفاء بحاجاتهم [٣٢] .

ونحن نرى : أن لغتنا كافية للتعبير عن أغراض أهلها والدلالة على كل ما أرادوا تبيانه ، وأمامنا تاريخ العرب منذ الجاهلية الأولى وفي ما تلاها من العصور ، فلنتصفحه ونطالع فيه ما شئنا مما جادت به قرائح شعرائهم وخطته أقلام كتابهم ؛ فنجده غاية في جمال الأسلوب وصحة

التركيب وفصاحة التعبير وعذوبة الألفاظ وسلامتها مع جزالتها وفخامتها ؛ وما ذلك إلا لأن اللغة العربية وضعت منذ البدء على أساس راسخ متين ضمن لها الثبات والبقاء ، وأنشأ فيها خاصية التشعب والتفرع ومرونة التقلب والتغير ، ومهد لأبنائها في كل عصر سبيل المضي في الاتساع ومواصلة البناء على ذلك الأساس الصخري الدهري الذي هو الاشتقاق ؛ حتى يصح القول : إن الاشتقاق هو اللغة، وإن اللغة هي الاشتقاق ؛ حيث هو قوامها وعمادها ، ويسهل على الناطقين بها التعبير عن كل ما عرض لهم أن يشيروا بالنطق إليه أو يدلوا بالكتابة عليه .

وكأن المتأخرين كلما أرادوا التعبير عن المعاني المقصودة يجدون المتقدمين قد سبقوهم إلى الدلالة عليها، وإن اتفق لهم أن يجدوا الذين تقدموهم لم يسبقوهم إلى ذلك، كانوا على الفور يحذون حذو المتقدمين في وضع ألفاظ تدل على المعاني المبتغاة، إما بطريق الاشتقاق بالاستعمال الحقيقي أو المجازي، وهو أوسع الطرق وأعمها وأقربها منالا، وإما بطريق النحت أو التركيب أو التعريب، وهذا الأخير أندر الطرق وأقلها استعمالا [٣٣] .

٣- البيئة العربية ملوثة لغويا :

من حيث استشراء اللهجات العامية ، وانتشار الكلمات الأجنبية على المحال التجارية والمطاعم والفنادق والحياة العامة ، والكلمات العامية والأخطاء النحوية على وسائل النقل وفي الإعلانات والإعلام ، وفي الكلمات التي تلقى في المناسبات ، وفي العملية التعليمية ، وضبابية المقاصد في أذهان القائمين على تعليم اللغة وتعلمها ، وقصور محتوى المناهج ، وضآلة الجانب الوظيفي فيها ، وتخلف طرق تعليم اللغة وتعلمها ، والإخفاق في غرس الشغف بالقراءة ومحبتها في نفوس المتعلمين [٣٤] .

٤- عدم وجود مشروع قومي – في كل قطر – ؛ لتعريب العلوم :

بادئ ذي بدء ؛ أود أن أركز على أمرين :

الأمر الأول: هناك شبهات حول تعريب التعليم ، وخاصة الجامعي في العالم العربي ، فقد زعم البعض أن اللغة العربية غير قادرة على استيعاب العلوم والتقنيات الحديثة.

ووهموا ؛ حيث إن اللغة العربية لها من الاشتقاق ما يتيح لها توليد ملايين الكلمات الجديدة . فضلاً عن أن في بطون معجماتها مئات الألوف من الكلمات المهجورة والمستعملة ؛ مما يصلح

أن يوضع لهذه المسميات الحديثة ؛ ولنا بهذا الصدد أسوة حسنة ، فيما فعله العرب أنفسهم في صدر الإسلام والعصر العباسي ؛ فمن المسلم أن الماضي مرآة للحاضر ، والحاضر مرآة للمستقبل ؛ وهذه هي إحدى الغايات الجليلة التي تعمل على تحقيقها "مجامع اللغة العربية" في العالم العربي .

ولله در حافظ إبراهيم، إذ يقول على لسان اللغة العربية:

وسعتُ كتاب الله لفظا وغاية وما ضقت عن آي به وعظات

فكيف أضيق اليوم عن وصف آلة وتنسيق أسماء لمخترعات

أنا البحر في أحشائه الدر كامن فهل ساءلوا الغواص عن صدفاتي

فيا ويحكم أبلى وتبلى محاسني وفيكم وإن عزّ الدواء – أُساتي ؟! [٣٥]

أيضاً.. يدعون أن استعمال اللغة الأجنبية في التعليم الجامعي ييسر للطلاب النابغين متابعة دراستهم العليا في البلاد المتقدمة !

وتناسوا أن التعريب لا يلغي تعليم اللغات الأجنبية واستخدامها في الاطلاع على المراجع الأجنبية أو في مواصلة الدراسة في الخارج .

أيضاً يقولون : إن معظم أساتذة التعليم العالي تلقوا تعليمهم بلغة أجنبية ، ويصعب عليهم أن يحاضروا باللغة العربية ، وهذا صحيح.

غير أنه ينبغي أن تنظم لهؤلاء الأساتذة دورات تدريبية على استعمال اللغة العربية في تدريس موادهم.

وقد أثبتت التجارب العديدة ، في هذا المضمار ، أن الصعوبة التي تواجه هؤلاء الأساتذة محدودة ، وتنحصر في الأسابيع القليلة الأولى من التعريب.

أيضاً يقولون : إن الشبكة الدولية للمعلومات (الإنترنت) فقيرة بالمادة العربية ، وهذا صحيح أيضاً.

ويتطلب منا تشجيع علمائنا على فتح مواقع عربية على هذه الشبكة تضم مساهماتهم في شتى المجالات. كما يتوجب على الجامعات العربية التوسع في إنشاء مواقع معرّبة لها في هذه الشبكات .. [٣٦] .

الأمر الثاني : جميع الدلائل العلمية المستقاة من تجارب الأمم الأخرى ، ومن خبرة مفكرينا وأساتذتنا في التعليم العالي ، تشير إلى أن الجامعات العربية لا تستطيع أن تقوم بدورها القيادي في التنمية البشرية ما يضر إصلاحها في أهدافها وبنيتها ومناهجها وطريقة تسييرها .

في الوقت الذي نؤكد فيه، على أن الدعوة للتعريب، لا تعني بأي شكل من الأشكال إهمال اللغات الأجنبية، أو التقليل من شأنها !

فهي الإدارة الأساسية، والفعالة، التي تمكننا من ملاحقة ما يجري في العالم من نشاط علمي يزيد من معارفنا وينمي من قدراتنا، ويدفعنا إلى التعمق والتجويد.

من هنا ؛ فإنني أؤكد على أن جميع مستلزمات التعريب متوفرة ، ولا تحتاج إلا إلى أمرين :

أولا: منهجية واضحة في التعريب تتضمن برنامجاً زمنياً يلتزم به ويطبق، لتعريب المراجع الأساسية والبرمجيات ، باستخدام المصطلحات العلمية العربية الموحدة ، وتدريب الأساتذة المعنيين على استعمال اللغة العربية في التدريس والبحث العلمي.

ثانيا: توفر الإرادة الصادقة، لدى أصحاب القرار[٣٧].

ولن يتأتى هذا إلا من خلال قرار سيادي، ومشروع قومي في كل قطر عربي ؛ فالله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن !

هذا ؛ وقد أطلعني – مؤخرًا – في الأردن الشقيق أمين عام مجمع اللغة العربية هناك على المشروع القومي لتعريب التعليم الجامعي في بلاده ، وتمنيت على الله أن تسير الدول العربية على هذا المنوال ؛ فالأمر يسير ، حيث يقوم أساتذة العلوم الكونية في شتى الميادين بترجمة الكتب التي يقومون بتدريسها عن اللغات الأجنبية إلى اللغة العربية ، مع مواكبة – مستحدثات – العلوم كلما جد جديد .

٥- الدعوة إلى العامية :

بدأت الدعوة إلى اتخاذ العامية بدل الفصحى منذ أكثر من مائة سنة. ولعل أول من حمل لواءها المستشرق الألماني "ولهلم سبيتا" (ت ١٨٨٣ هـ)، وكان من كبار موظفي دار الكتب المصرية في عهد الاستعمار البريطاني .

وطبيعي أن يجد "سبيتا" ودعوته تشجيعا وعونا من الاستعمار الذي وضع خططه لضرب الإسلام ولغته، وألبس دعوته ثوبَ الغيرة على الشعب العربي المسلم في مصر، ووجد من بعض

المصريين تأييداً، من أمثال : سلامة موسى، وأحمد لطفي السيد ، وقاسم أمين، الذي نعى على اللغة العربية الفصحى صعوبتها ؛ وقال كلمته المشهورة : "إنّ الأوروبي يقرأ لكي يفهم، أما نحن فنفهم لكي نقرأ " .. (٣٨) .

ولخطورة هذه القضية ، فقد دقّ ناقوس الخطر الأستاذ محمود محمد شاكر منذ عشرات السنين؛ حيث قال : "تلك قضية من أعقد القضايا التي ابتلي بها العالم العربي خاصة ، والعالم الإسلامي عامة، ولا تزال حية إلى اليوم، بل بلغت عنفوانها في هذه السنين الأخيرة، وليس لها شبيه في العالم كله ... والكشف عن حقيقة هذه القضية ، قضية العامية والفصحى، كشفٌ عن أعظم مؤامرة خبيثة، بدأت خافتة ، ثم علا صوتها ... والمشتركون في القضية ، بين غافل لا يدري ماذا يقول، ولا ماذا يُراد به، وبين ماكر خبيث يُضرم النار في الحطب ؛ لتأكل الأخضر واليابس بعد قليل.. (٣٩) .

ومن بين الآثار التي ظهرت في هذا المضمار: ما استنكره المرحوم الدكتور إبراهيم أبو الخشب ؛حين قال : وإذا كانت هذه العامية تجري على ألسنة السوقة في الحقل والمصنع والسوق ودور السينما أو الشوارع فتغزو لغة القرآن ؛ فلا يليق بنا – ونحن في هذا الوضع الحضاري – أن نقرر دراستها في الجامعات باسم : (الأدب الشعبي) ؛ زاعمين أنه أدب فيه صور جميلة، وخيال رائع، ومعان دقيقة، ربما كانت تهذيبًا للناس، وتقويمًا للأفكار، وإصلاحا للمجتمع، ورقيا للأذواق، ونضوجاً للوعي والإدراك ؛ فإنّ هذه كلها معان من المغالطة ، ولون من ألوان الجناية على الفصحى، والإساءة إليها .. (٤٠) .

٦- سبل النهوض باللغة العربية :

أصدرت هيئة اليونسكو – مؤخرًا – تقريرًا عن حال لغات العالم جاء فيه : أن هناك خطورة على عدد من اللغات ومن بينها (اللغة العربية)، وأنّ هذه المخاطر قد تصل إلى حد اختفاء تلك اللغات من ألسن المتحدثين بها إذا ما استمر حال التدهور والإهمال والعزوف عن استخدامها استخداما سليما يحافظ عليها من التخلف ومن ثم الضياع(٤١) .

وهذا الأمر يستحيل بالنسبة للغتنا الخالدة ، حيث إنها لغة القرآن الكريم، وهي محفوظة بحفظه إلى يوم الدين.

غير أنه لو نظرنا إلى ما يفعله أصحاب اللغات الأخرى لخدمة لغاتهم ؛ لوجدنا أنفسنا مقصرين كثيرًا.

إلاّ أن التاريخ حفظ ، ومازال يسطر لنا بأحرف من نور جهود رواد بذلوا ما بوسعهم لخدمة هذه اللغة الخالدة (اللغة العربية).

فمثلا عندما تولى سعد زغلول وزارة المعارف في مصر ، كان التعليم في المراحل الأولى باللغة الإنجليزية، فقد كان كتاب الحساب المقرر على الصف الابتدائي–مثلا–، تأليف (مستر تويدى) . وكذلك سائر العلوم. فألغى سعد هذا كله، وأمر أن تدرس المقررات كلها باللغة العربية، وأن توضع مؤلفات جديدة باللغة القومية، وبذلك المسلك الناضج حفظ لمصر عروبتها .

وهذا الصنيع دفع أحد المفكرين المصريين إلى القول : "إنّ سعدًا أحسن إلى جيلنا كله بجعلنا عربا " . فكم سعداً نحتاج إليه [٤٢] .

ومما تقدم ترى الباحثات أهمية اللغة العربية التي تعد لغة القرآن الكريم ، وعليه هناك عدة توصيات تذكرها الباحثتان :

١– التركيز في مرحلة الطفولة – بوصفها أهم المراحل المشكلة لعقلية الطفل العربي – على القصائد والأناشيد السهلة بغية تنمية مهارة التذوق والحس اللغوي لدى الطفل ، وهذا لا يتأتى إلاّ بتنمية الذوق العربي وتكوين الملكة اللغوية الخاصة لأطفالنا منذ نعومة أظفارهم ، عن طريق التمرس على قراءة وحفظ القرآن الكريم والشعر العربي والحديث النبوي الشريف .

٢– التزام جميع المعلمين وفي مراحل التعليم كافة باستعمال اللغة العربية في العملية التعليمية ، وألا يخضعوا للترقية في وظائفهم إلا إذا أثبتوا إتقانهم أساسيات لغتهم .

٣– عقد دورات لجميع المعلمين لتدريبهم على استعمال أساسيات اللغة بصورة سليمة ، وألا تقتصر الدورات على معلمي اللغة العربية وحدهم ؛ انطلاقا من أن تعليم اللغة مسؤولية جماعية ، وأنّ استخدام اللغة السليمة من معلمي جميع المواد يسهم أيما إسهام في تحسين الواقع اللغوي للمتعلمين .

٤– ضبط الكتب المؤلّفة بالشكل في جميع المواد الدراسية ، وخاصة في مرحلة التعليم الأساسي والاستمرار في عملية الضبط في المراحل التالية ، على أن يضبط ما يخشى منه اللبس بصورة خاصة .

المصادر والمراجع:

١- أباطيل وأسمار : محمود محمد شاكر، الطبعة الثانية – مطبعة المدني، سنة ١٩٧٢م .

٢- اقتضاء الصراط المستقيم : لابن تيمية، ط. مطبعة السنة المحمدية، ١٣٦٩هـ .

٣- التكوين التاريخي للأمة الإسلامية .. دراسات في الهوية والوعي : عبد العزيز الدوري، ط. بيروت، ١٩٨٤م.

٤- الحيوان: لأبي عثمان بن عمرو بن بحر الجاحظ، تحقيق عبد السلام محمد هارون، الطبعة الثانية – مصطفى الحلبي، د.ت .

٥- خطة عمل وطنية لتمكين اللغة العربية والحفاظ عليها والاهتمام بإتقانها والارتقاء بها: إعداد لجنة تمكين اللغة العربية، الطبعة الأولى – دار هارون الرشيد في دمشق، ١٤٢٩ هـ .

٦- الرسالة : للإمام الشافعي، تحقيق أحمد محمد شاكر، الطبعة الأولى – مصطفى البابي الحلبي، ١٣٥٨هـ .

٧- فضل العربية ووجوب تعلمها على المسلمين : لأبي عبد الله محمد بن سعيد بن رسلان، ط. دار العلوم الإسلامية، ١٤٠٩ هـ .

٨- فقه اللغة : علي عبد الواحد وافي، ط. دار نهضة مصر، د.ت .

٩- فقه اللغة وسرّ العربية : للثعالبي، تحقيق السقا وآخرين، ط ٠ الحلبي، ١٣٩٢هـ.

١٠-قضايا ومشكلات لغوية: أحمد عبد الغفور عطار، الطبعة الأولى – تهامة في جدة، ١٤٠٢هـ .

١١-قطوف من فقه اللغة : محمد السيد علي بلاسي، الطبعة الأولى – دار ظافر، ١٤١٨هـ .

١٢-محنة اللغة العربية : إبراهيم أبو الخشب، (هدية مجلة الأزهر ؛ لشهر صفر ١٤٣٠هـ) .

١٣-المعرّب في القرآن الكريم .. دراسة تأصيلية دلالية : محمد السيد علي بلاسي، الطبعة الأولى – جمعية الدعوة الإسلامية العالمية بطرابلس الغرب، ٢٠٠١م .

١٤-وحي القلم : للأستاذ العلامة مصطفى صادق الرافعي، ط. دار المعارف، د. ت .

١٥- المصطلحات العلمية في اللغة العربية: مصطفى الشهابي، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، ١٩٨٨م.

١٦- مقالات وآراء في اللغة العربية: حمد بن ناصر الدخيل، الطبعة الأولى – دار الشبل في الرياض، ١٤١٥هـ.

– البحوث في المؤتمرات والندوات :

١٧- التعريب بين النظرية والتطبيق (تجربة الأسلاف – كأنموذج ..) : محمد السيد علي بلاسي، (ورقة عمل قدمت في مؤتمر : "اللغة العربية أمام تحديات العولمة"، والذي عقد في بيروت – لبنان، في ١٥، ١٦ أبريل ٢٠٠٣م) .

١٨- هل من مشروع قومى لتعريب العلوم ؟ : محمد السيد علي بلاسي، (ورقة عمل قدمت في المؤتمر التاسع لتعريب العلوم، والذي عقد في رحاب جامعة عين شمس، سنة ٢٠٠١م).

١. وحي القلم:للأستاذ العلامة مصطفى صادق الرافعي، ٣٢/٣، ط. دار المعارف، د.ت .
٢. وحي القلم : ٣٢/٣ .
٣. ينظر ؛ خطة عمل وطنية لتمكين اللغة العربية والحفاظ عليها : ص٧، ٨ .
٤. خطة عمل وطنية لتمكين اللغة العربية والحفاظ عليها : ص٩، ١٠ .